# ديوان

# عبد الله بن رواحة الأنصاري الخزرجي

## شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم

---

دراسة • جمع • تحقيق

---


دكتور حسن محمد باجودة

رئيس قسم اللغة العربية

بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة



الناشر

مكتبة

دار التراث

٢٢ شارع الجمهورية - القاهرة

القـــاهرة
مطبعة السنة المحمديه
١٧ شارع شريف باشا الكبير ـ عابدين

رقم إيداع دار الكتب
٤٨٧١ لسنة ١٩٧٢

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة

هذا العمل ، عن عبد الله بن رواحة ، الأنصارى الخزرجى ، ابتدأ بمحاولة جادة لجمع شعره من المصادر المطبوعة ، وربما وقفنا على بعض مخطوطات المطبوع ، بقصد التثبت أو التصحيح ؛ ولم نوفق بعدُ العثور على مخطوط ديوانه ، وليس الأمل قوياً فى العثور عليه . وهذه المحاولة لا يمكن أن يُدّعى فيها الكمال بحال ، وإن كانت النية حريصة على ذلك . وهذه طبيعة الأعمال الأدبية ، فهى ، فى مثل هذه الحالات ، لا تعرف الكلمة النهائية مطلقاً . وقد رتبت الشعر الذى نسب إليه ترتيباً أبجدياً ، ذاكراً مصدر كل نص أو مصادره ، ومناسبته ، مع ذكر اختلاف الروايات ، وشرح ما يحتاج إلى شرح ، ناسباً كل فضل إلى صاحبه .

وقد سبق ذلك وقفة سريعة عند الشعر الذى ينسب لابن رواحة وسواه فى آن واحد ، مع تبيين الرأى الراجح إن كان ذلك ممكناً . وتلا ذلك دراسة شعره الجاهلى فالإسلامى .

والحقيقة أن الحديث ممتع عن ابن رواحة الشاعر المخضرم ، ففى الوقت الذى ينطبق عليه تماماً فى الجاهلية قوله تعالى « وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » ينطبق عليه تماماً فى الإسلام ، الجزئيات المتقدمة من الآية نفسها فى قوله تعالى «هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » .

حقاً لقد ضاع أكثر شعر ابن رواحة الجاهلى والإسلامى ، ولكن الذى وصلنا من شعره الجاهلى جميعه فى النقائض ، وذلك النوع من الشعر الجاهلى كان فخر مقيت ، وهجو ، ومغالطات إلى آخر العناصر التى يتكون منها شعر النقائض وهو يصور الأوس والخزرج ، وهم جزء لا يتجزأ من الأمة العربية آنذاك قصيرىّ النظر محدودى الإدراك . وأنا ، بإيرادى هذه الحقائق ، لا أريد الإساءة إلى ابن رواحة أو سواه إنما أريد أن أقول : إننا حين ننظر إلى الانتقال الحسن الذى أحدثه الإسلام فى ابن رواحة وفى آلاف الشخصيات سواه ، فى هذه الفترة القصيرة جداً ، التى لا يكاد يصدقها عقل بشرى ، فإننا نستطيع أن نقول بكل اطمئنان : إن الإسلام أحدث أعظم انتقال خاطف ، إلى الحسن ، عرفته البشرية فى تاريخها الطويل .

وقد صهر الإسلام ، دين القوة والعزة والسلام ، الأمة العربية فى بوتقة واحدة . فبعد أن كان الأخ يصارع أخاه ولا يكاد يفكر فى سواه ، إذا بهم وقد صاروا مسلمين لله رب العالمين ، ينطلقون ، إذعاناً لأمره تعالى ، فى كل صوب يرفعون راية لا إله إلا الله محمد رسول الله . ويأتون ، بعون الله ، وتوفيقه بالعجب العجاب . وهنا نستطيع أن نقول أيضاً . إن أمة الإسلام تستطيع أن تفخر بأن عندها القدرة لأن تقدم ترجمات دقيقة لآلاف الشخصيات التى لعبت أدواراً هامة ، بألسنتها وأيديها ، فى الفترات المبكرة جداً من تاريخ الأمة الإسلامية . إنها فترات من الوضوح التام للدرجة التى يتعذّر وجود نظير لها من غير الإسلام . وتتميز بعض هذه الشخصيات ، بسبب بعض الخصال التى تعرف بها ، والأدوار المتميزة التى لعبتها ، بالصور الواحدة التى نجدها لها فى كل المصادر التى كتبت عنها . ومن بين هذه الشخصيات ، تبدو شخصية عبد الله بن رواحة ، مثال الشاعر المؤمن ، ظاهرة المعالم واضحة المقسمات .

وابن رواحة ، فوق ذلك ، واحد من ملايين الشهداء ، خلال التاريخ الإسلامى المجيد ، الذين بذلوا أرواحهم رخيصة فى سبيل الله ، وليس بخاف الوضع الأليم الذى تعيشه الأمة الإسلامية هـذه الأيام . . ونحن إن أردنا أن نزيل هذه الوصمة عن جبيننا ، وقطعاً نحن نريد ، فإن استطعنا أن نرضع أطفالنا روح الجهاد فى سبيل الله ، جنباً إلى جنب مع لبن ثُدِىّ الأمهات فلنفعل . ونسأل الله عز وجل أن نسمع فى القريب العاجل عن كتائب جيش لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وقد اندفعت فى كل اتجاه كى تعيد الحق إلى نصابه . ونحب أن نقول بهذا الصدد إن هذه الكتائب حينما توجد ، فستكون الهدف الأهمّ لكل أعداء الله أينما وجدوا . ونحب أن نقول أيضاً : إن هذه الكتائب حينما توجد ، فإننا وقتها فقط نستطيع أن نقرأ : لقد أوشكنا أن نقطع الخطوة الأولى فى الطريق الصحيح ، الطويل جداً ، الملىء بالمخاطر . « وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ » صدق الله العظيم .

وفى الختام أسأل الله عز وجل التوفيق والسـداد فى القول والعمل ، إنه على ما يشاء قدير .

د . حسن محمد باجوده
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
بمكة المكرمة

مكة المكرمة { السبت ، الرابع والعشرون
من شهر صفر عام ١٣٩٢ هـ

# فهرست بالموضوعات


| الموضوع | رقم الصفحة |
|---|---|
| المقدمة | ج |
| فهرست بشعر ديوان ابن رواحة | ز |
| تمهيد | ١ |
| نبذة عن عبد الله بن رواحة . | ١ |
| شعر عبد الله بن رواحة . | ٣ |
| دراسة شعر عبد الله بن رواحة الجاهلى . | ٩ |
| شعر النقائض ودور عبد الله بن رواحة فيه . | ٩ |
| قصيدة قيس بن الخطيم فى يوم معبس ومضرس . | ١١ |
| النقائض ويوم الفضاء . | ١٨ |
| النقائض ويوم البقيع | ٢٩ |
| النقائض ويوما حاطب وبعاث . | ٣١ |
| دراسة شعر عبد الله بن رواحة الإسلامى . | ٤١ |
| روح إسلامية . | ٤٣ |
| الرجز وحفر الخندق . | ٥١ |
| الرجز وعمرة القضاء . | ٥٢ |
| شعره وغزوة مؤتة . | ٥٥ |
| رموز المصادر والمراجع . | ٧٦ |
| ديوان عبد الله بن رواحة . | ٧٧ |
| خاتمة | ١١٠ |
| فهرست بالمصادر والمراجع | ١١١ |

# فهرست بشعر ديوان ابن رواحة


| | | صفحة |
|---|---|---|
| إذا | أدْيتنى وَحَمْلتِ رَحْلى | مسيرةَ أربع بعد الحساء | ٧٩ |
| لعمرى لقد حَكَّتْ رحى الحرب بعدما | أطارتْ لُؤيا قبل شرقًا ومغربا | ٨١ |
| يا قيس أنتم شرارُ قومِكُمُ | قدماً ، وأنتم أغثهم نسبا | ٨٢ |
| أشاقتك ليلى فى الخليط الجانبِ | نعم فرشاشُ الدَّمْع فى الصدرِ غالبى | ٨٣ |
| رميناك أيام الفجارِ فلم تزل | حمياً فمن يشرب فلست بشاربِ | ٨٦ |
| يا نفس إلا تقتلى تموتى | | ٨٧ |
| لكننى أسألُ الرحمن مغفرةً | وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا | ٨٨ |
| تذكر بعد ما شَطَّتْ نجودا | وكانت تَيَّمت قلبى وليدا | ٨٩ |
| رحم الله نافع بن بُديلٍ | رحمة المبتغى ثواب الجهاد | ٩٢ |
| تخبرونّى أثمان العباء متى | كنتم بطاريق أو دانت لكم مضرُ | ٩٣ |
| يا رسول المليك أن لسانى | راتقٌ ما فتقتَ إذْ إنا بورُ | ٩٥ |
| فلم أر كالإسلام عزاً لأهله | ولا مثل أضياف الأراشى معشرا | ٩٥ |
| لو لم تكن فيه آيات مبيّنة | كانت بداهته تنبيك بالخبرِ | ٩٥ |
| كذبت لقد أقمت بها ذليلاً | تُقيمُ على الهوان بها وتَسْرى | ٩٦ |
| وفينا رسولُ الله يتلو كتابَه | إذا انشق معروفٌ من الفجر ساطعُ | ٩٦ |
| فسرنا إليهم كافة فى رحالهم | جميعاً علينا البيض لا نتخشعُ | ٩٦ |
| شهدتُ ولم أكذبْ بأن محمداً | | |
| رسولُ الذى فوق السماوات من علُ | | ٩٧ |
| لما رأيتُ بنى عوف وإخوتهم | كعبا ، وجمع بنى النجار قد حَلفوا | ٩٧ |

صفحة

بكت عينى وحق لها بُكاها وما يُغنى البكاءُ ولا العويلُ ٩٨
يا زيدُ زيدَ اليعملات الذُبَّل
خلف السلامُ على امرىء ودعتُه فى النخل خير مشيِّع وخليلِ ١٠٠
خلوا بنى الكفارِ عن سبيله
جلبنا الخيل من أجأ وفرعٍ تُغَرُّ من الحشيش لها العُكومُ ١٠٢
أتانى الذى لا يقْدر الناس قدره لزينب فيهم من عقوق ومأثم ١٠٤
شهدت بأن وعد الله حقٌّ وأن النار مثوى الكافرين ١٠٦
ياربِّ لولا أنْتَ ما اهتدينا ١٠٦
باسم الإله وبه بَدِينا ١٠٧
أقسمتَ يا نفس لتَنْزلنَّه ١٠٨
وعدنا أبا سفيان بدراً فلم نجد لمعاده صدقاً وما كان وافيا ١٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

## تمهيد

### نبذة عن عبد الله بن رواحة :(١)

هو(٢) عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرىء القيس بن عمرو بن امرىء القيس بن مالك بن الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج الأنصارى الخزرجى الشاعر المشهور ، يكنى أبا محمد . ويقال : كنيته أبو رواحة ويقال : أبو عمرو(٣) ، وأمه كبشة بنت واقد بن عمرو بن الأطنابة ، خزرجية أيضاً . وليس له عقب من السابقين الأولين من الأنصار. وكان أحد النقباء ليلة العقبة وشهد بدراً وما بعدها إلى أن استشهد بمؤتة .

« وهو خال النعمان بن بشير ، وكان عبد الله يكتب فى الجاهلية ، وكانت الكتابة فى العرب قليلة . . . . . وهو صاحب المناقب المذكورة فى الإسلام والأيام المشهورة(٤) وكان فى الجاهلية عظيم القدر فى قومه ، سيداً من ساداتهم ، وكان يناقض قيس بن الخطيم ، الشاعر الأوسى الجاهلى (٥) .

٣٠٦/٤

(١) ترجمته فى ابن عساكر ٧ / ٣٨٧ والخزانة ٢ / ٢٦٤ والإصابة والاستيعاب والمؤتلف والمختلف « فى ترجمته » .

(٢) الإصابة ٢ / ٢٩٨ .

(٣) لعل الأخيرة هى الصحيح ، فهى التى جاءت فى كنى الشعراء ومن غلبت كنيته على اسمه ص ٢٨٩ .

(٤) تهذيب ابن عساكر ٧ / ٣٨٧ .

(٥) انظر طبقات ابن سلام ص ١٨٦ ، والإصابة (فى ترجمته) ٢/٢٩٩ ومعجم الشعراء .

وكما كان الإسلام فى فجره ، فى حاجة إلى الذين يدافعون عنه بأنفسهم وأموالهم ، كذلك كان فى حاجة إلى الذين يدافعون عنه بألسنتهم وأفكارهم ومشاعرهم ، فقد انبرى عدد من مشركى شعراء مكة والطائف يهاجمونه وقد أنزل الله فى حق هذه الفئة قوله « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون [١] وقد فهم شعراء المدينة المنورة المحسنون ، الذين كانوا يذودون عن الإسلام ، ويردون الأذى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة بأن هذه الأبيات تشملهم . فقد « قال عبد الله : قد علم الله أنى منهم »[٢] فأنزل الله تعالى[٣] إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون »[٤] .

شعر عبد الله بن رواحة :

لعبد الله بن رواحة شعر فى الجاهلية والإسلام ، ولم يحدث خلاف فى نسبة الشعر الجاهلى القليل الكمية له لوضوح الدور الذى قام به مع قيس بن الخطيم بالذات ، فهو خزرجى وابن الخطيم أوسى . وكان دورهما فى النقائض واضحاً . وفى مثل هذه المواقف توجد عادة فئات تحفظ شعر الأول فى جانب ، والثانى فى جانب آخر وقد يوجد من يعنى بشعر الجانبين ويحرص على ترديده . فقد روى مثلا عن طُوَيس ، المغنّى المدنى الأموى المشهور ، الذى كان يضرب به المثال

---

(١) الشعراء آيات ٢٢٤ — ٢٢٦ .

(٢) تهذيب ابن عساكر ٧ / ٣٩٠ .

(٣) الشعراء آية ٢٢٧ .

(٤) انظر تهذيب ابن عساكر ٧ / ٣٩٠ والاستيعاب ٢ / ٢٨٥ والخزانة ٢ / ٢٦٤ .

فيقال : أشأم من طويس[١] أنه كان ولعاً بالشعر الذى قالته الأوس والخزرج فى حروبهم ، وكان يريد بذلك الإغراء فقلّ مجلس اجتمع فيه هذان الحيان فغنّى فيه طويس إلا وقع فيه شىء . فنهى عن ذلك فقال : والله لا تركت الغناء بشعر الأنصار حتى يوسدونى التراب ،وذلك لكثرة تولع القوم به فكان يُبْدى السرائر ويخرج الضغائن ، فكان القوم يتشاءمون به[٢] .

وإذا تأملنا شعر ابن رواحة الجاهلى ، وكله فى النقائض ، فإنه يتضح لنا أنه وصلتنا ، بين هذا الشعر ، قصيدة واحدة كاملة فقط ، هى النقيضة الدالية ، ومطلعها .

تذكر بعد ما شَطَّتْ نجودا وكانت تيمتْ قلبى وليدا

ولو نظرنا إليها من حيث الكم لاتضح لنا أنها تزيد فى العدد على قصيدة ابن الخطيم التى جاءت فى نفس الوزن والقافية ، والتى أراد ابن رواحة نقضها وكل شعر ابن رواحة الجاهلى الباقى يرد به على آخرين . فإذا اتخذنا رغبة ابن رواحة فى كون نقيضته أطول من قصيدة خصمه قياساً على هذه القصيدة الوحيدة الكاملة ، أو على أقل تقدير تكون فى حدود عددها ، وعرفنا أن قصائد ابن الخطيم بالذات وصلتنا فى ديوانه كاملة ، فإننا نستطيع عن طريق هذه المقارنة أن ننتهى إلى أن أكثر شعر ابن رواحة الجاهلى قد ضاع . لأن هذه النقائض لم تصلنا كاملة من ناحية ومن ناحية أخرى لم نوفق بعد فى العثور على مخطوط ديوانه الذي نعتقد أنه يتضمن شعراً جاهلياً كثيراً للدور البارز الذى كان يلعبه ابن رواحة بيده ولسانه ضد الأوس .

---

(١) انظر مجمع الأمثال للميدانى .

(٢) غ « ق » ٢ / ١٧٥ .

أما شعره الإسلامى الذى لصق به ولم يكد ينسب لغيره فهو الشعر الذى يرتبط بأعمال إيجابية معينة قام بها ابن رواحة صاحب الدور البارز فى صدر الإسلام . وهناك أشعار ليس لابن رواحة فى مناسباتها أدوار ايجابية بل اقتصر على الانفعال فالتعبير ، وهنا نجد ابن رواحة مظلوماً فى هذا المجال . فنحن نظن أن لابن رواحة أشعاراً من هذا القبيل لم يصلنا بعضها ، واختلط البعض الآخر بشعر المعاصرين له ، وبالذات حسان بن ثابت وكعب بن مالك . ونحن نظن من ناحية أخرى أن ابن رواحة ، بشأن شعره الملازم لأعماله الإيجابية محظوظ . فقد وصلنا هذا الشعر فى أحسن الصور الممكنة . ومن الأمثلة على ذلك شعره منذ توجهه إلى مؤته حتى استشهاده . ونحن نعتقد أن هنالك العديد من الشعراء المعاصرين له الذين كانت لهم أمثال تلك الأنواع من الشعر ومع ذلك هى لسوء الحظ لم تصلنا .

وسنحاول أن نمر سريعاً على الشعر الذى نسب له ولغيره ، مبينين ، فى إيجاز ، رأينا ما أمكن .

هناك أولا الشعر الذى ليس لابن رواحة فى مناسباته أدوار إيجابية ، وقلنا إنه مظلوم بشأنه ، فهو ينسب له حيناً وببساطة لايلبث أن ينسب لسواه . هذه الظاهرة تلاحظ بالنسبة لما يلى .

المقطوعة التى مطلعها :

لعمرى لقد حكمت رحى الحربِ بعدما أطارت لؤيا قبلُ شرقا ومغربا

فهى تنسب لكعب بن مالك أو عبد الله بن رواحة .

وهذان البيتان :

رحم الله نافع بن بُدَيل رحمةَ المبتغى ثواب الجهاد

صابر صادق وفىّ إذا ما أكثر القوم قال قول السداد

اللذان ينسبان مع ثالث إلى حسان فى ديوانه .

وهذا البيت :

بكت عَيني وحق لها بكاها وما يُغْنى البكاء ولا العويل

وهو مطلع قصيدة من ستة عشر بيتاً تنسب لابن رواحة وكعب بن مالك وينسب بعضها لحسان . والثلاثة الأبيات التى أولها :

شهدت ولم أكذب بأن محمداً رسولُ الذى فوق السماوات من علُ

فإن الأول والثالث يرويان لحسان بن ثابت أيضاً والأبيات الثلاثة ضمن مقطوعة فى ديوان حسان .

والمقطوعة التى مطلعها :

أتانى الذى لا يقدر الناس قدره لزينب فيهم من عقوقٍ ومأثم

فقد رجح ابن هشام نسبتها لأبى خيثمة ، مالك بن قيس الأوسى .

والمقطوعة التى مطلعها :

وعدْنا أبا سفيان بدراً فلم نجد لميعاده صِدْقا وما كان وافياً

فقد رجح ابن هشام أيضا أنها لكعب بن مالك . والحقيقة أن البتّ فى أمثال هذه المواقف ليس سهلا ميسوراً . مالم ندرس بعمق شعر ابن مالك وحسان ، على أقل تقدير ، وهذا لم يتسن لنا بعد .

أما هذه الأرجوزة التى وصلتنا أخيراً فى هذا العدد وأمكن جعلها فى هذه الصورة :

(١) يانفس إلا تقتلى تموتى

(٢) هذا حمام الموت قد صليت

(٣) وما تمنيت فقد أعطيت
(٤) إن تفعلى فعلهما هديت
(٥) إن تسلمى اليوم فلا تفوتى
(٦) أو تبتلى فطالما عوفيت
(٧) وانْ تأخّرت فقد شقيت
(٨) هل أنت إلا إصبع دميت
(٩) وفى سبيل الله ما لقيت

فعند دراسة مصادرها لوحظ أن أكثر المصادر قدماً اكتفت بالأبيات الأربعة الأولى . وفيما يتصل بالبيتين الأخيرين ، فالمعروف أن ابن رواحة إنما نظم هذه المقطوعة من الرجز قبل أن يستشهد فى مؤتة ، ولم نسمع أن إصبعه دميت قبل نظمه لها . ثم إن البيتين الأخيرين لم ينسبا فى المصادر القديمة لابن رواحة ، ولكن لغيره ، فعلى سبيل المثال نسبا فى سيرة ابن هشام للوليد بن الوليد ابن المغيرة فى مناسبة نظنها أكثر ملاءمة . ونحن نرجح أن هذين البيتين ليسا لابن رواحة ، وأنهما الحقا بالأرجوزة الأصلية للاتفاق فى القافية ، ويبقى بعد ذلك الأبيات ٥ ، ٦ ، ٧ وقد جاء الأولان مع ١ ، ٢ ، ٣ فى حماسة البحترى والأخير مع ١ — ٤ ، ٨ ، ٩ فى ابن عساكر فكأن الخامس عند البحترى حل محل الرابع عند غيره ، ومن الناحية الفنية لايتأتى وجودهما معاً فى هذه الصورة .

ومن ثم نحن نستغنى بالرابع لوجوده فى المصادر الأكثر قدما عن الخامس. ولا نرى بأساً فى الابقاء على السادس والسابع ، فليس لدينا مبرر لرفضهما

تاريخياً أو فنياً ، وإن كنا نلاحظ بصفة عامة أن عدد أبيات الرجز فى تلك الفترة محدود . ثم إن موقف ابن رواحة فى مؤتة آنذاك ليس مهيئاً له للإفاضة فى النظم . ويمكن أن تكون الأرجوزة أخيراً فى هذه الصورة :

(١) يا نفس إلا تقتلى تموتى
(٢) هذا حمام الموت قد صليت
(٣) وما تمنيت فقد أعطيت
(٤) أن تفعلى فعلهما هديت
(٥) أو تبتلى فطالما عوفيت
(٦) وان تأخرت فقد شقيت

وهذا البيت :

يا رسول المليك إنّ لسانى راتق ما فتقتُ إذ أنا بورُ

جاء فى التاج « بور » بصدده أنه يظن نسبته لابن رواحة ، والواقع أنه ليس له البتة ، لأنه لا يتمشى كلية مع موقف ابن رواحة من الإسلام وإيمانه المعروفين . وهو من قصيدة فى السيرة منسوبة لعبد الله بن الزبعرى الشاعر المكى ، وهذا هو الصحيح .

وهذا البيت :

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بداهته تنبيك بالخبر

ينسب له ولحسان . وليس أحدهما أولى بنسبة هذا البيت إليه من الآخر :

وهذا البيت :

فسِرْنا إليهم كافة فى رحالهـم جميعاً علينـا البيض لا تتخشَّعُ

هو من قصيدة فى السيرة لـكعب بن مالك ، وهو الصحيح .

أما بيتا الرجز هذان :

(١) يا زيدُ زيدَ اليَعْمَلاتِ الذُّبَّل

(٢) تطاول الليـل عليـك فانزل

فقد رجح البغدادى بمـا لايدع مجالا للشك فى صحة نسبتهما لابن رواحة

أما مقطوعة الرجز التى مطلعها :

خلوا بنى الـكفار عن سبيله

والتى قال فيها ابن هشام نحن قتلناكم على تأويله إلى آخر الأبيات لعمار بن ياسر فى غير هذا اليوم ( يريد ليس فى يوم عمرة القضاء ، وإنما فى يوم صفين ) والدليل على ذلك أن ابن رواحة إنما أراد المشركين . والمشركون لم يقروا بالتنزيل ، وإنما يقتل على التأويل من أقر بالتنزيل ، فقد رد على ذلك العلامة الأستاذ محمود شاكر بقوله ، ليس المراد بالتأويل فى البيت تفسير الـكلام الذى تختلف معانيه ، بل التأويل هنا ، هو ما يؤول إليه نبأ الله لنبيه ، ومصير المؤمنين ، إلى ما وعدهم به ، كما فى قوله تعالى : هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله وعليه فالأرجوزة صحيحة النسبة لابن رواحة . أما الأرجوزة التى مطلعها :

يا رب لولا أنت ما اهتدينا

والتى تنسب لابن رواحة وعامر بن الأكوع معاصره ، فالواقع أنها يمكن أن تصدر من كل منهما ، فلـكل باع فى الرجز .

# دراسة شعر عبد الله بن رواحة الجاهلي

## شعر النقائض ودور ابن رواحة فيه :

عرف عبد الله بن رواحة بأدواره المجيدة فى الإسلام ، حتى ليكاد يظن أنه ليس له علاقة بالجاهلية. والواقع أنه من شعراء الخزرج المخضرمين المعدودين وبتأمل شعره الجاهلى القليل الكمية ، تبين أن كله من النقائض ، ذلك النوع من الشعر الذى كان مزدهراً فى بيئة يثرب قبل الإسلام، بحكم الصراع العنيف الدامى بين الأوس والخزرج . وقد نظم ابن رواحة ذلك الشعر فى جملته رداً على قيس بن الخطيم الشاعر الأوسى الجاهلى .

وهناك عدة ملاحظات نود أن نقدمها بين يدى دراستنا لشعر ابن رواحة الجاهلى ، فى النقائض . ويمكن أن تكون نافعة بشأن دراسة شعر النقائض لكل .

(١) شعر النقائض معناه عادة أن ينظم شاعر قصيدة متغنياً فيها بانتصار قومه ، مشيداً بأمجادهم ، مفتخراً بهم ، مذيعاً مثالب أعدائه ، معلنها على الملأ هاجياً لهم . فيعمد شاعر القوم الآخرين إلى تفنيد دعاواه .

(٢) إن الشاعر الذى يبدأ النظم له مطلق الحرية فى اختيار البحر والقافية اللذين يريد ، وانتقاء المعانى وعرضها فى الصورة التى يهوى ، والموضع الذى يشتهى ، وليس للشاعر الآخر شىء من هذه الحرية . وفوق ذلك ، هو مفروض عليه أن يقتبع معانى الشاعر الأول بالنقض والتفنيد وأحياناً يستعير معجمه اللغوى .

(٣) إنّ الشاعر الذى يبدأ بالنظم ، ينطلق عادة من نقطة قوة ، إضافة إلى الحرية السابقة التى يتمتع بها . فقيس بن الخطيم مثلا فى القصيدة الدالية ، وجد من انتصار قومه الأوس على الخزرج فى يوم الفضاء ، حافزاً له على أن ينطق ، وفى أعمالهم المجيدة مادة صالحة لأن تعلن على الملأ ، بالإضافة إلى فرحه الطبيعى بانتصار قومه على الأعداء . كل هذه الحقائق طبعت قصيدته بطابعها . تماماً كما طبعت الهزيمة قصيدة ابن رواحة .

(٤) إنّ تفوق شاعر أحد الجانبين على الآخر فى نقيضه أو أكثر لا يعنى بالضرورة تقدمه المطلق وتفوقه على خصمه مالم تكن هناك أسباب أخرى تقضى بذلك .

فى ضوء هذه الملاحظات ألقينا نظرة متأنية على شعر ابن رواحة فى النقائض فتبين أنه دائماً يتتبع قصيدة خصمه بالنقض . بما فى ذلك يوم معبّس ومضرّس الذى انتصر فيه الخزرج على الأوس انتصاراً ساحقاً . فإن ابن الخطيم نظم قصيدة رائية بعد ذلك اليوم ، وقد نقضها ابن رواحة . ووصلتنا قصيدة ابن الخطيم كاملة ولم يصلنا من نقيضه ابن رواحة سوى بيت واحد ، لا يقدم ولا يؤخر ، وهو :

كذبت لقد أقمت بها ذليلا تقيم على الهوان بها وتسرى

ومعنى هذا أن ابن رواحة يقوم دائماً بدور المدافع ، وينطلق من نقطة الضعف باستمرار . ومطلع قصيدة ابن الخطيم :

ألم خيال ليلى[1] أم عمرو ولم يُلم بنـــــا إلا لأمر

---

(١) ليلى التى شبب بها ابن الخطيم أخت عبد الله بن رواحة .

وقصيدة ابن الخطيم هذه من أكثر القصائد التى نظمها الحيان فى الجاهلية دلالة على العداء المتأصل بين الحيين ، وتمشياً مع قوله صلى الله عليه وسلم للأنصار « ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم »[١] وذلك بعد أن أعطى فى قريش وقبائل العرب من أموال هوازن ولم يعط الأنصار شيئاً ، اطمئناناً منه صلى الله عليه وسلم لإيمانهم ، فوجدوا فى أنفسهم ، لأنه بَعُد عليهم مغزى النبى صلى الله عليه وسلم .

والواقع أن قصيدة ابن الخطيم هذه تتأثر بمرارة الهزيمة وتعكس وضع الأوس القلق فى يثرب بعد هذه الحرب ، لدرجة أنهم عزموا على مغادرة يثرب إلى غير رجعة[٢] .

وبما أن هذا اليوم ، انتصر فيه الخزرج ، وطبيعى أن يتأثر كل من مشاعر الخزرج والأوس بهذه النقيجة ، وبما أن شعر ابن رواحة فى هذا اليوم لم يصلنا وأن الذى وصلنا ، فى غير هذا اليوم من شعر ابن الخطيم ، الذى نقضه ابن رواحة ، مبعثه البهجة بانتصار الأوس ، وأن هذا اليوم مبعث حسرة وألم لابن الخطيم ، تماماً كما كانت الأيام الأخرى مبعث حسرة وألم لابن رواحة ، فهما من الوجهة النفسية سواء ، لهذا نحن نؤثر هذه القصيدة بشىء من العناية ، كى نتبين تأثر مستوى القصيدة فنياً بانخفاض الروح المعنوية للشاعر وارتفاعها .

قصيدة قيس بن الخطيم فى يوم معبّس ومضرّس .

ابتدأ ابن الخطيم القصائد بالنسيب فى ثلاثة أبيات هي :

أَلمَّ خيال ليلى أم عمرو ولم يلم بنا إلا الأمر

(١) السيرة ٢/٤٩٩ .

(٢) أثر يوم معبس ومضرس ١/٦٧٧ .

تقول ظعينتى لما استقلت أتترك ماجمعت صريم سحر
فقلت لها ذريني إن مالى يروح إذا غلبتهم ويسرى

هذه المقدمة تتأثر بنتيجة الحرب التى فى غير صالح قوم الشاعر ، فألم به خيال محبوبته ليلى أمّ عمرو ، الذى عوده أن يزوره حينما يكون هناك أمر جلل ، وبما أن العادة جرت أن يتذكر الإنسان آخر عهد له بمن يهوى ، إذا لم يكن سبب معين يقضى بغير ذلك ، لهذا تخيل الشاعر هذه المحبوبة ، وقد استقلت هودجها لائمة له على تضحيته بكل ماجمع ، ويأسه من جدواه ، وانشغاله بسواه فيجيبها بأنه إن قدر له أن يهزم الخزرج ، ويثأر لهزيمة يوم معبّس ومضرّس ، فإن سوامه وقتها ، ستجد العناية التامة ، والحرية المطلقة . وهكذا نلاحظ العلاقة الوثيقة بين حالة الشاعر النفسية والنسيب الذى صبغته تلك النفس بصبغتها ولم تطل الحديث فيه لانشغالها بما هو أهم .

وقد ابتدأ حديثه فى الموضوع الأساسى فى القصيدة مشيراً إلى تصميمه وتصميم قومه على الأخذ بالثأر .

فلستُ لحاصن إن لم تروني نجالدكم كأنا شربُ خمر

إنه هو الناطق باسم الأوس ، وهو يقدم بين يدى ماعزموا عليه من الأخذ بثأرهم من الخزرج بأنه ليس ابن امرأة عفيفة حصان إذا لم يترجم الأوس هذه النية عملا ، ولم تروهم يجالدونكم وكأنهم لاندماجهم فى المعركة واندفاعهم فى كل جهة ، واستهانتهم بالموت ، وضربهم فى كل شق وناحية من لقوا من الخزرج ، أولئك الذين انتشوا من الخمرة فأكسبتهم جرأة وشجاعة إلى جرأتهم وشجاعتهم . والواقع أن العلاقة بين الخمرة التى يشربها اليثربيون والشجاعة

متعارف عليها آنذاك ، فهذا حسان بن ثابت يقول مثلا[١] :

ونشربها فتتركنا ملوكا وأسدا ما يُنَهْنِهُنا اللقاء

وبيت ابن الخطيم بالإضافة إلى ذلك يشير إلى مدى حرص العربى على الإشادة بطهارة النسوة اللاتى أنجبنه . وعموماً هذا البيت يدل على فضل قوة عند الأوسيين مصدرها الكبرياء المجروح ، إذ أتى بعد البيت مباشرة

وتحمل حربهم عنا قريش كأن بنانهم تفريك[٢] بسر

وتدرك فى الخزارج كل وتر بذم الكاهنين وذم عمرو

فهم بعد هزيمتهم النكراء فى هذا اليوم ، طلبوا المساعدة من القرشيين بمكة ، وإن انكسار نفسية ابن الخطيم وضعف روحه المعنوية يجعلا لا يمانع فى إلقاء العبء الأكبر على قريش فى أخذ الثأر للأوس من الخزرج . وهذا يدل على المنزلة العسكرية التى يتمتع بها القرشيون إضافة إلى المنزلة الروحية . ويلاحظ أن الشاعر يشبه أيدى القرشيين التى سالت عليها دماء الخزرجيين بالبسر الأحمر المستوى ، وهو من منتوجات يثرب الزراعية . وهذا البيت من أكثر الوثائق صحة فى الدلالة على ضعف الأوس عسكريا بعد هذا اليوم . وفى هذه القصيدة أبيات أخرى تؤكد هذا كما سنرى .

حقاً ، قد انهزم الخزرج أكثر من مرة أمام الأوس ، ولكن لم نسمع عن نية الخزرج يوماً من الأيام فى مغادرة يثرب بعكس الأوس . وهذا يدل بالإضافة إلى العديد من النصوص الموثوقة على أن الخزرج تتقدم الأوس فى العدد والعدة .

---

(١) الديوان ص ٨ .

(٢) أصل الفرك : دلك الشىء حتى يتقلع قشره عن لبه كالجوز . التاج .

والشطر الأخير يدل على أن قريظة والنضير ، حلفاء الأوس عادة ، تخلوا عنهم ووادعوا الخزرج بعد يوم معبس ومضرس ، بل أنهم بعثوا للخزرج دليلا على عدم وقوفهم مع الأوس ضدهم أربعين غلاماً من أبنائهم رهناً (١) كما تخلى عنهم بنو عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس ووادعوا الخزرج ، ولم يسيروا مع بنى عبد الأشهل وبنى ظفر من الأوس إلى مكة ليطلبوا حلف قريش على الخزرج . وهذا يدل على أن بطون الأوس وحلفاءهم ليسوا دائماً جبهة واحدة أمام الشدائد ، وهو مالا ينتظر من بطون القبيلة الواحدة ومن الأحلاف .

وهنا نتساءل : هل أبلغ الأوس فى هذا اليوم عذرهم ؟ والجواب بالإيجاب حيث يقول ابن الخطيم :

زَجَرْنا النخل والآطام حتى إذا هى لم تُشَيِّعنا لزجر
هما بالإقامة ثم سرنا كسير حذيفة الخير ابن بدر

ففى أول البيتين يشير إلى أنه هو وقومه قد بذلوا منتهى طاقاتهم ، وطلبوا المساعدة من كل مظانها ، واستحثوا كل أصحاب النخل والأطام ، وحينما لم يتلقوا ما أملوا هموا بأن ينتظروا فى يثرب حتى تلتئم جراحهم كى يعاودوا الخزرج الحرب مرة أخرى ثم بدا لهم فانطلقوا فى سرعة خاطفة وتكتم إلى مكة معلنين العمرة مبيتين النية على التحالف مع القرشيين . ويجعل الشاعر سرعة حذيفة بن بدر الفزارى مقياسا لسرعتهم ، وكان أغار على هجائن النعمان بن المنذر بن ماء السماء ، وسار فى ليلة واحدة مسيرة ثمان .

ويفخر الشاعر إلى مجدهم التليد ، ورصيدهم القديم :

ورثنا المجد قد علمت معد فلم نُغلب ولم نسبق بوتر

---

(١) ديوان ابن الخطيم ص ١٨٠ .

ويشير إلى بأسهم الشديد الذى يعرفه الخزرج والذى يظهرونه لهم مرة أخرى فى أول فرصة تتاح لهم :

متى تلقوا رجال الأوس تلقوا لبـاس أسـاود وجـلود نمر

فالأوس دائماً مدججون فى السلاح ، يثير منظرهم القشعريرة فى النفس والرهبة فى الفؤاد ، ومن يدخل معهم فى حرب يعلم يقيناً أن الموت مرتبط بهم، تماماً كما يرتبط بأعظم الحيات خبثاً وأشد الحيوانات افتراساً وأكثرها بطشاً ويشير إلى حروبهم التى تبدأ فى الصباح الباكر وتستمر النهار بطوله ، ويفخر بأنهم صدق عند اللقام .

ونصدق فى الصباح إذا التقينا ولو كان الصباح جحر جمر

وجملة التقينا تفيد أنهم أميل لأن يلتقوا بالأعداء وجهاً لوجه . ويأتى بعد ذلك البيت الذى يعتبر من أبلغ الوثائق فى الدلالة على الذل الذى كان فيه الأوس بعد يوم معبّس ومضرّس .

ألا أبلغ بنى ظفر رسولا فلم نذلل بيثرب غير شهر

وهو ذل يدل على العداء الذى كان متأصلا فى نفوس أفراد كل من الحيين والبيت التالى يبين السبب الذى انهزم من أجله الأوس ، ولماذا لزمهم الذل ذلك الشهر ، ذلك أن حلفاءهم وأصدقاءهم من العرب واليهود قد خذلوهم دون عذر ، وهم ملومون بسبب ذلك اللوم كله :

خذلنـاه وأسلمنا الموالى وفارقنا الصريح لغير فقر

ومع ذلك فهم أخذوا شيئاً من حقهم فى المعركة قبل الهزيمة . تماماً كما

أخذوا حقهم من بنى سعد بن بكر . وهـذا دليل على أن حروبهـم ليست مقصورة على الخزرج .

أبحنا المسبغين كما أباحت يمانونا بنى سعد بن بكر

والأبيات التالية تشير إلى ما يمكن أن يصادفه الأوس فيما لو قدر لهم أن يغادروا يثرب . وهى كما أسلفنا ، من أدق الوثائق فى الدلالة على الضعف العسكرى والمعنوى اللذين كان فيهما الأوس .

فإن نلحق بأبرهة اليمانى ونعمان يُوَجهنا [1] وعمرو
وان ننزل بذى النجدات كرز نلاق لديه شرباً غير نزر
له سَجلان ، سجل من صريح وسجل تركة بعقيق خمـــر
ونمنع ما أرادوا ، لا يعانى مقيم فى المحلة وسط قسر
وإن تغدر بنـا غطفان نردف نـساءهم ونقتل كل صقر

وواضح أنه يشير إلى احتمال نزولهم مبجلين على أصدقائهـم أينما كانوا فهناك أبرهة بن الصباح اليمانى من ملوك حمير ، والنعمان بن المنذر ، وهما من ملوك الحيرة ، أو عمرو بن الحارث الأعرج ، من ملوك غسان فى الشام وهناك كرز الأعنة ابن عامر بن عبد الله ، من بجيلة ، من قحطان ، الـكريم ، الذى سيُروينا بلبنه الصريح ، وخمره المعتق المصفق بماء الغدير . إننا سنـكون معهم يداً واحدة على عدوهم ، متمتعين بما يتمتعون به من حرية وعزة . وهناك أخيراً غطفان ، حلفاؤنا ، الذين ننتظر منهم ما ينتظر من الحليف ، أما إذا

---

(١) يوجهنا : يجعل لنا جاها .

أرادوا أن يغدروا بنا ، فإنا قادرون على حربهم وقتل ابطالهم وسبي نسائهم . ومع أن ابن الخطيم ، ذكر أكثر من قوم سيرحل إليهم الأوس ، إلا أنه خص بعض اليمنيين بالذكر ، بل إنه ابتدأ بأبرهة اليمانى ، وقد يكون فى ذلك دليل على أكبار الأوس لأصلهم اليمنى ، واهتمامهم بالأنساب ، ولا ننسى أنه قال من قبل :

أبحنا المسبغين كما أباحت يمانونا . . . . . .

يريد كما فعل قومنا اليمنيون .

ويختم القصيدة بهذا البيت الذى فيه شيء كبير من الثقة فى النفس والاعتداد بها :

فنحن النازلون على المنايا ونحن الآخذون بكل ثغر

إننا أناس شجعان ، مهما كنا على ثقة من خطورة المكان الذى ننزل ، ولو كانت بمثابة الموت الزؤام ، فلا يمكن أن ننكص أو نتردد . ونحن المرابطون القادرون على حماية كل الحدود المخوفة المتاخمة للأعداء .

وهكذا يتبين لنا من دراستنا للقصيدة السابقة أن الهزيمة قد أثرت فعلا فى نفسية ابن الخطيم ، شاعر الأوس وفارسها فى الجاهلية ، فهو يعترف بالهزيمة والذل تارة ، ويوعد بالأخذ بالثأر أخرى ، ويستعين بالقرشيين فى سبيل ذلك . ويفر إلى الماضى المجيد ، ويشير إلى رغبة قومه فى مغادرة يثرب إلى غير رجعة ، والضرب فى الأرض الواسعة ، حتى ينزلوا على بعض أصدقائهم الذين سيكون جوارهم خيراً من جوار أبناء عمومتهم الخزرج . كل هذه الحقائق نافعة لنا

حينما ندرس شعر ابن رواحة الذى صادف أن نفسيته فى كل شعره الجاهلى فى النقائض كنفسية ابن الخطيم .

وسوف نتبين مستقبلا أن مستوى شعر ابن الخطيم فنياً يرتفع بارتفاع روحه المعنوية لانتصار قومه .

النقائض ويوم الفضاء :

من الأيام التى التقى فيها الأوس والخزرج وكان النصر فيها للأوس يوم الفضاء (١) وقد قدر لقيس بن الخطيم ، شاعر الأوس ، أن ينظم قصيدة دالية ، يسجل فيها هذا الانتصار ، معيراً الخزرج ، مفتخراً بقومه الأوس ، وقد نظم عبد الله بن رواحة ، نقيضة لهذه القصيدة فى نفس الوزن والقافية ومطلع قصيدة قيس :

صرمت اليوم حبلك من كنودا (٢) لتبدل حبلها حبلا جديدا

ومطلع قصيدة ابن رواحة :

تذكر بعد ما شطّت نجوداً وكانت تيّمت قلبى وليداً

وقد خصص ابن الخطيم ، مقدمة قصيدته للنسيب الذى جاء فى خمسة أبيات ومن حقنا وقد عرفنا أن الشاعر قد نظمها سعيداً بانتصار قومه ، أن تعقد رابطة نفسية بين النسيب وموقفه من هذا الانتصار . وواضح أن موقف الشاعر من

---

(١) موضع بالمدينة ، وهو لبنى خطمة ، ويفضى إليه سيل بطحان ، وبه يلتقى سيل مهزور ومذينب ، وهو ممدود وقد يقصر .

(٢) الكنود بالفتح : المرأة الكفور للمودة .

هذه المرأة الكفور لمودته موقف الند للند . فهو يبادلها قطيعة بقطيعة وجحوداً بجحود . إن موقف الشاعر من المرأة فى هذا النسيب التقليدى ، إنما ينطلق ، دون أن يشعر من موقف الانتصار العسكرى الساحق وكأنه اتخذ من هذه المرأة الكفور للمودة رمزاً للنصر الذى طالما تمناه ، وسعى وراءه جاهداً ، وبذل فى سبيله كل ما يملك . وهو لا يزداد مع الأيام فى التسويف إلا تمادياً . وحينما قدر للنصر أن يتحقق فى يوم الفضاء ، كان الشاعر مستعداً لأن يذوب فيه ويفنى ، استعداد الذى بلغ منه اليأس من محبوبته منتهاه ، لأن يذوب فى أخرى قدمت له كل ما يتمنى . لقد وجد فى نفسه الجرأة لأن يكمل ما بدأت المرأة الجحود من قطع حبال المودة بينهما . وكأنى بالشاعر فى الشطر الثانى ، إنما يتخذ من الحبل الجديد ، الذى يعنى به المرأة الأخرى المحبة له ، رمزاً لعهده الجديد بالانتصار الذى تحقق بعد طول انتظار ويأس .

وقد يؤيد هذه الرابطة النفسية بين النسيب ونتيجة المعركة أن موقف ابن رواحة فى النسيب من المرأة التى يهوى مغاير لموقف ابن الخطيم . فقد كانت نفسيته منكسرة ، وبالتالى هو فى نسيبه ضعيف الموقف منكسر الخاطر ، لا يخطر بباله أن يفسر بعد محبوبته عنه قطيعة متعمدة منها ، فضلا عن أن يبادلها ذلك . إنما يتخذ منها موقف العاشق المذنب الذى هذه صفته دائماً كما سنرى .

ويستمر ابن الخطيم فى نعت محبوبته :

من اللائى إذا يمشين هوناً تجلببْنَ المجاسد والبرودا

كأن بطونهن سيوفُ هند إذا ما هن زايلن الغمودا

فهذه المحبوبة من طراز ممتاز من النساء ، مترفات منعمات ، حينما يُضطرَرْنَ ،

يعشين للنعمة التى هن فيها بتؤدة وبطء ، لابسات أحسن أنواع الثياب لوناً ونوعاً ، إن بطونهن ، لرشاقتهن ، وصفاء ألوانهن ، كسيوف الهند التى غادرت لتوها الأغماد . ويستمر متغزلا ببعض أعضائها ، ولعله يربط بين جيدها ووجهها وبين أول العهد بها من ناحية ، والوجه خاصة ، وآخر العهد بها من ناحية أخرى ، يقول :

تَبَدَّت لى لتقتلنى فأَبْدَتْ معاصم فَخْمَة منها وجيداً
ووجها خِلْتُه لما بدالى غداة البين ديناراً نقيداً

لقد كان منها فى أول الأمر تَعَرَّض له ، فأبدت له عن معصميها المَكْلين الممتلئين ، وجيدها الأغيد ، ووجهها الجميل الذى يبدو لصفائه كالدينار الجيد النقى . وكان لفرحه وقت إقبالها عليه مستعداً لأن يتجول ببصره فى كل ما تبدى له منها ، وحينما أدبرت عنه ، غداة البين ، لم يستطع لوجومه وتبلده ، أن يتحول ببصره عن وجهها .

فإذا انتقلنا إلى الموضوع الرئيسى ، نجد ابن الخطيم ابتداء يسجل نتائج المعركة ، يقول :

سقينا بالفضاء كؤوس حَتْفٍ بنى عوف وأخوتهم تزيدا

ويلاحظ أنه يلجأ إلى حاسة الذوق حينما يتحدث عن عض المعركة للأعداء لأن هذه الحاسة لايكاد يختلف الذائقون فى نتائجها . وكذلك الحرب لا يكاد يختلف المتحاربون فى حقيقة طعمها المر ، المنتصرون والمنهزمون على السواء ، ولكن مرارة طعمها بالنسبة لابن الخطيم هنا قد ضاعت فى غمرة الفرح

بالانتصار ، أو لعله تعمد إلصاقه بالأعداء إضافة إلى مرارة الهزيمة . ويبدو فى هذا الشطر « سقيناهم بالفضاء كئوس حتف » غمرة الفرح التى داهمت الشاعر ، وسكر النصر الذى خامره ، ومرارة الألم الذى عض الأعداء ، واستفحال القتل الذى تمكن منهم ، وغصص الموت التى تجرعوها ، فهو يأتى بالكئوس فى صيغة الجمع مضافة إلى « حتف » . والمعروف أن الكأس فى اللغة لا يطلق عليها ذلك إلا إذا كانت ممتلئة ، وحينما يأتى بها فى صيغة الجمع فذلك دليل على أن كئوس الحتف كانت بعدد القتلى . كما يأتى بالفعل سقى الذى يرتبط به عادة كمية لا بأس بها من السائل . ومعروف أن عملية الذوق ، التى يقوم بها القليل من السائل ، وافية بالغرض من هذا الاتجاه ، على حد قول زهير :

وما الحرب إلا ماعلمتم وذقتم

وقول أبى قيس ، صيفى بن الأسلت ، الأوسى الجاهلى :

من يذق الحرب يجد طعمها مرّا وتحبسه بجعجاع

ولكن ابن الخطيم يستعمل الفعل « سقى » الأكثر متنفساً لأحقاده ، مسمياً مكان المعركة ، معيناً فرعين من الخزرج كان حظهم فى الحتف أكثر من حظ سواهم .

وانتقل ابن الخطيم بعد الإجمال إلى التفصيل :

لقيناهم بكل أخى حروبٍ يقود وراءه جمعاً عتيداً

ومشرفة التلائل مضمرات طوى أحشاءها التعداء قوداً

فهو يشير فى أول البيتين إلى الأعداد العالية من الأبطال ، الذين ينزلون من الحروب منزلة الإخوة لطول ممارستهم لها ، والذين يقودون وراءهم كتائب

الأوس المستعدة تمام الاستعداد . وكأنى بالشاعر يسجل هنا توزيع الأوس لكتائبهم على هيئة الخميس ، وقد يدل ذلك على بقاء كل فرع من الأوس متميزاً عما سواه مستقلا بناحية من النواحى ، مسئولا عن التقدم أو التقهقر فيها ، وسواءاً كان هذا المراد أم ذاك فالفخر مقصود من الشاعر .

وفى البيت الثانى ينعت الأفراس بأنها مرتفعة الأعناق طويلتها وهذا دليل على ضخامتها وأصالتها ، وبأنها مضمرات قد أعدت لمثل ذلك اليوم ، قد طوى أحشاءها العدو ، فليس غريباً عليها مثل ذلك الصراع والمجهود الذى كان عليها أن تبذله آنذاك .

ويتحول مخاطباً الخزرج فى صيغة الاستفهام الانكارى قائلا :

هل بلغ بكم الحمق للدرجة التى أخذتم تعتقدون فيها بأن حرب الأوس كسهولة حصولكم على البسر الفاسد المغبّر وأكله هو وحب الحنظل الذى تطبخون . لقد ضل رأيكم وتبين لكم أنكم حمقى بسبب هذا الظن . يقول :

أحسبتم تحسبون قتالَ قومى كأكلكم الفغايا[1] والهبيدا

وواضح أن بيتاً كهذا فيه شىء كبير من الاعتداد بالنفس والحط من شأن الأعداء بوصمهم بسوء التقدير وضعف الهمة . ولا يخفى مافى ذلك من المغالطة أيضاً ، فإن هذا النوع الردىء من التمر وحب الحنظل الذى يطبخ إنما يلجأ إليهما ويتخذهما طعاما الخزرج وغير الخزرج إذا كانت هناك مجاعة ، خاصة وأن بيئة يثرب خصبة وما أسهل أن يجد الضعيف فيها من التمر مايسد رمقه ومعروف أن الخزرج تتقدم الأوس فى العدد والطاقة . ولا يخفى أن الشاعر

---

(١) الفغى : داء يقع على اليسر مثل الغبار .

يتخذ من انهزام الخزرج فى هذا اليوم متنفساً لأحقاده التى ورثها من الآباء والأجداد .

وإذا كان الشاعر فى تسجيله للنتيجة مجملة أولا قد خص بنى عوف وإخوتهم تزيد ، بسقيهم كئوس الموت ، لأن نصيبهم أكثر من نصيب سواهم ، فإنه عاد الآن إلى تبيين نصيب رفاقهم من الخزرج فى ذلك اليوم يقول :

أصاب القتلُ ساعدةَ بن كعبٍ ... وغادر فى مجالسها قرودا (١)

وقد رُدَّ العزائم فى طريفٍ ... وأقيان (٢) يصوغون الحديدا

وإن سيوفنا ذهبَتْ عليكم ... بنى شَرَّ الخَنَى مهلاً (٣) بعيدا

ويأبى جَمْعُكُم إلا فرارا ... ويأبى جَمْعنا إلا وررا

وإن وعيدنا كم حين نمشى ... بهنَّ على المنون ولا وعيدا

فبنو ساعدة بن كعب ، نالوا نصيبهم من سيوف الأوس ، وقد انعكس أثر الهزيمة فى مجالسهم فباتوا وكأنهم القرود ذلة وانكساراً . أما بنو طريف ابن الخزرج بن ساعدة فقد كانوا هم وباقى الخزرج الذين يتقنون صوغ الحديد ولا يجيدون استعماله غرضاً لعزمات الأوس المركزة . ان هذه الفئة من الخزرج تتقن هذه الحرفة الحقيرة فى نظر ابن الخطيم ، وربما يشاركه هذه النظرة سواه ؛

---

(١) التاج : أقرد الرجل : لصق بالأرض والقاموس وأقرد : سكت وسكن وذل وتماوت .

(٢) جمع قين ، وهو الحداد ، وفى الأصل «وأقيال» والقيل : الملك من ملوك حمير . ولايتمشى هذا المعنى مع مايريده الشاعر .

(٣) المهل ، بالتحريك : التقدم .

أما هو وقومه فإنهم يجيدون استعمال الآلات التى تصاغ من هذا الحديد ، السيوف بخاصة ، التى نالت من الخزرج ، أعرق الناس فخشاً ، أقصى مايمكن أن ينال . وكانت النتيجة أن أصر الخزرج على الفرار ، وهو إصرار قد أرغموا عليه لإصرار الأوس على التقدم . وهذا نتيجة حتمية للانتصار . وقد ثبت للخزرج أن وعيد الأوس حينما يمشون فى عزيمة وإصرار وفى أيديهم السيوف التى تنثر الموت نثراً ليس له نظير .

وفى هذا البيت :

ألا من مُبْلِغٌ عنى كعيباً فهل ينهاك نُبْكَ أن تعودا

استخفاف من ابن الخطيم بكعب ، ولعله كعب بن مالك الشاعر الخزرجى الذى يأتى به فى صيغة تصغير التحقير . مستفهماً فى لهجة غير المتأكد عما إذا أصبح عند كعب من العقل مايمنعه أن يتورط مستقبلا فى حرب مضمونة الهزيمة كهذه . ويبدو أن ابن الخطيم يرجح عدم استفادته من هذا الدرس القاسى ، تماماً كما لم يستفد قومه من قبل يقول .

أرانى كلما ضدّرتُ أمرا بنى الرقعاء[1] جثّمكم صَعودا

فالخزرج فى نظر ابن الخطيم فى عماية دائمة وضلالة مستمرة . لايخرجون من ورطة حاكها ابن الخطيم لهم إلا ليقعوا فى أخرى ، لأنهم ورثوا الحمق من أمهم الحمقاء ، ولا يخفى أن الشاعر يغالط هنا . فأم الخزرج والأوس واحدة لهذا يقال لهما ابنا قَيْلة .

ويغلب على البيتين الأخيرين طابع الفخر :

---

(١) الرقعاء : الحمقاء . والصعود العقبة الشاقة .

فما أبقت سيوف الأوس منكم وحَدُّ ظُباتها إلا شريد
فلن تنفكَّ تقتل ماحيينا رجالكم ونجعلكم عبيدا

وهنا مبالغة كعادة شاعرنا ، إذ يزعم أنه لم يبق من الخزرج بفعل سيوف الأوس الماضية سوى الهاربين ، ويعلن عن نيته ونية قومه فى استئصال البقية الباقية منهم مستقبلا . أو أن يضربوا عليهم ذل العبيد الدائم الذى ليس وراءه ذل .

نقيضة ابن رواحة :

وكما بدأ ابن الخطيم قصيدته بالنسيب ، كذلك بدأ ابن رواحة نقيضته . وقد أشرنا من قبل إلى أن نتيجة المعركة أثرت فى موقف الشاعرين من امرأتين اللتين يهويان ، فابن رواحة ضعيف الموقف من محبوبته ، بعكس ابن الخطيم ، يقول :

تذكر بعد ماشَطَت نجودا وكانت تَيَّمت قلبى وليدا
كذى داء يُرى فى الناس يمشى ويكتم داءه زمناً عميدا
تصيّد غرة الفتيان حتى تصيدهم ، وتشنأُ أن تصيدا
فقد صادت فؤادك يوم أبدت أسيلا خدُّه صَلْتا وجيدا
تزين معاقِدُ اللبات منها شنوفاً فى القلائد والفريدا
فإن تَصْنَن عليك بما لديها ويصبح حبل نائلها جديدا
لعمرك مايوافقنى خليل إذا ما كان ذا خلف كنودا

إن موقف ابن رواحة من محبوبته قبل البعد وبعده واحد ، إنه الحب لها

مع أنه يتظاهر بغير ذلك ، كالمريض الذى يماشى الناس ويكتم داءه . ولقد كملت محاسن هذه المحبوبة ، فهى تصادف دائماً من الفتيان هوى ، ويقعون فى أشراكِ حبها دون قصد منها لذلك أو رغبة . وهذا ما فعلته مع ابن رواحة حين صادتِ قلبه يوم بدا منها وجهها الجميلِ وخدها الأسيل وجبينها الواضح وجيدها الأغيد . وقد أضفت لِمَاتها لتوهجها جمالا إلى القلائد التى تتقلدها والحلىّ التى تضعها فى أعلى أذنيها ، والدر الذى نظم وفُصل بغيره فى جيدها .

ونحن نستطيع أن نعقد رابطة نفسية بين النصر الذى تمادى فى ابتعاده وبين المحبوبة التى هذا فعلها . إن موقف الشاعر منهما واحد هو عدم الموافقة ولكنه لا يستطيع بصدد المحبوبة أن يتخذ موقفاً آخر أكثر ايجابية . والحقيقة أن الهزيمة طبعت قصيدة ابن رواحة بطابعها ، وليس ذلك وقفاً على النسيب . لنتأمل هذه الأبيات التى يفر فيها ابن رواحة إلى تسجيل رصيد الخزرج من المجد سابقاً .

وقد عَلِم القبائل غير فخرٍ ... إذا لم تلف مائلة ركودا
بأنا تخرُج الشتواتُ منا ... إذا ما استحكمت حسبا وجودا
قدورا تفرقُ الأوصال فيها ... خضيبا لونها بيضاً وسودا
متى ما تأت يثرب أو تردها ... تجدنا نحن أكرمها جدودا
وأغلظها على الأعداء ركنا ... وألينها لباغى الخير عودا
وأخطبها إذا اجتمعوا لأمر ... وأقصدها وأوفاها عهودا

إذا نُدعى لثـأر أو لجـار فنحن الأكثرون بها عديدا
متى ما تدع فى جشم بن عَوف تجدنى لا أعم ولا حيودا
وحولى جمع ساعدة بن عمرو وتيم اللات قد لبسوا الحديدا

إننا لو تأملنا أبيات ابن الخطيم التى يفخر فيها فخراً مباشراً ويهجوا هجواً مباشراً ، وقارناها بهذه الأبيات لاتضح لنا فرار ابن رواحة من حاضره إلى ماضيه ، فهو يفتخر بالكرم ، وأن القبائل تعرف هذه الظاهرة فيهم ، خاصة فى أوقات المجاعة ، إذ تنقشر الجفان الضخام الثقيلة المملوءة لحما وشحما والتى يبرق داخلها لفرط العناية به ، ويسود خارجها لكثرة تعرضه للنار .

كما يفخر بأنهم أعز من سكن يثرب ، وأغلظ الناس ركنا على الأعداء وألينهم عوداً لطلاب الخير ، وأفصحهم كلاما وقت المنافرة ، وأكثرهم عدلا وأوفاهم عهوداً ، وأسرعهم لأخذ الثأر أو حماية جار .

فما علاقة كل هذا بفخر ابن الخطيم وهجومه المباشر على الخزرج ؟ إن كل الذى سبق رصيد جماعى للخزرج . أما البيتان التاليان فرصيد فردى لابن رواحة :

متى ما تدع فى جُشْم بن عوف تجدنى لا أعمّ ولا حيودا
وحولى جمع ساعدة بن عَمْرٍ وتيم اللات قد لبسوا الحديدا

لقد عرف بن رواحة بين قومه بأنه ليس غليظ الجانب عليهم ولا متحاشيا للمستغيث وطالب المعروف ، وبأن بنى ساعدة وتيم اللات يلتفون حوله فى عددهم الحربية التامة .

ويأتى أول بيت يجيب فيه ابن رواحة قيس بن الخطيم مباشرة :

زعمتم أنما نلتم ملوكاً ونزعم أنما نلنا عبيداً

لقد تغنى الأوس بانتصارهم على الخزرج ، فعمد ابن رواحة فى بيت المقارنة الضعيف إلى المغالطة فجعل من انتصار الأوس على الخزرج وتغنى الأوس بذلك دليلا على المنزلة العالية التى يتمتع بها الخزرج والتى تصل بهم إلى مصاف الملوك . وجعل انتصار الخزرج المعتاد على الأوس شيئا هينا لهوان الأوس الذين ينزلهم الخزرج منزلة العبيد ، وهل اهتم الخزرج لغير الأوس والأوس لغير الخزرج ؟ ويستمر مغالطا فى البيت التالى :

وما نبغى من الأحلاف وترا وقد نلنا من المسود والمسودا

إنه يهون من انتصار الأوس ، فليس هناك حاجة إلى الأخذ بالثأر ، بل إن الخزرج أخذوا — ثأرهم من الأوس وأحلافهم فى المعارك السابقة التى قتلوا فيها منهم المسود والمسود . وكأن الماضى حلا له فاستمر غارقا فيه :

وكان نساؤكم فى كل دارٍ يخدشن المعاصم والخدودا
تركنا جحجبى كبنات فقع وعوفا فى مجالسها قعود
ورهط أبى أمية قد أبحنا وأوس الله أتبعنا ثمودا

ولماذا يخدش النساء المعاصم والخدود ؟ للجزع الذى انتهبا بهن بسبب الهزيمة التى حاقت بقومهن ، والذل الذى لحق بهن وبرجالهن . لقد قتل البعض ، وحل الهوان بمن نجا من القتل فلا يستطيعون ، لخزيهم مغادرة مجالسهم .

أما اليهود الذين أخذوا نصيبهم من عض المعركة ، والذين يغلب عليهم الوقوف جانب الأوس فإنه يخصهم بهذا البيت :

وكنتم تدّعون يهودَ مالا  الآن وجدتم فيها يهودا ؟

وإذا كان ابن الخطيم سبق أن قال :

وقد رد العزائم فى طريف  وأقيان يصوغون الحديدا

فإن ابن رواحة ، فى نهاية قصيدته يتأثر بابن الخطيم فى صورة ما فيقول :

وقد ردوا الغنائم فى طريف[١]  ونَحّام ورهط أبى يزيدا

فكأنه يقول : إن الأوس وحلفاءها ، خاصة من اليهود ، على الرغم من تصميمهم سابقا على الانتصار إلا أن النتائج كانت دائماً فى غير صالحهم .

وبعد دراستنا لكل من القصيدتين نستطيع أن نقول : إن ابن الخطيم ، لانتصار قومه كان قادراً على النطق ، بعكس ابن رواحة ، الذى ينطبق عليه تماماً قول عمرو بن معد يكرب : [٢]

فلو أن قوس أنطقتنى رماحُهم  نطقتُ ولكنّ الرماح أجَرّت[٣]

النقائض ويوم البقيع :

والتقت الأوس والخزرج ببقيع الغرقد[٤] فاقتتلوا قتالا شديداً ، فكان

---

(١) هناك رواية أخرى للشطر « وقد ردوا العزائم فى طريف » .

(٢) الحماسة ص ١٦٢ .

(٣) والإجرار : أن يشق لسان الفصيل فيجعل فيه عويد لئلا يرضع أمه .

(٤) يوم البقيع بعد يوم الفضاء وقبل يوم معبس ومضرس . والغرقد : شجر عظام ، أو هى العوسج إذا عظم ، واحده غرقدة وبها سموا .

الظفر يومئذ للأوس فقال عبيد بن ناقد الأوسى : [١]

لما رأيت بنى عوف وجمعهم ... جاءوا وجمع بنى النجار قد حفلوا[٢]

دعوت قوس وسهلت الطريق لهم ... إلى المكان الذى أصحابه حللوا

جادت بأنفسها من مالك عصب ... يوم اللقاء فما خافوا[٣] ولا فشلوا

وعاوروكم[٤] كئوس الموت إذ برزوا ... شطر النهار وحتى أدبر الأصل

حتى استقاموا وقد طال المراس بهم ... فكلهم من دماء القوم قد نهلوا

تكشف البيض عن قتلى أولى رحم ... لولا المسالم والأرحام ما نقلوا

تقول كل فتاة غاب قيمها[٥] ... أكل من خلفنا من قومنا قتلوا ؟

لقد قتلتم كريماً ذا محافظة ... قد كان حالفه الفينات والحلل

جزل نوافله ، حلوا شمائله ... ريان واغله[٦] تشقى به الإبل

والذى جاءنا من رد ابن رواحة عليه بيتان هما :

---

(١) أثير ١ / ٦٧٣ « يوم البقيع » .

(٢) حفلوا : جاءوا مجتمعين فى هيئة السيل الآتى . يقال : حفل الوادى بالسيل واحتفل : إذا جاء يملء جنبيه .

(٣) هكذا بالأصل ، ولا وجه له ، ولعل الصحيح « فما خاموا » بالميم بمعنى لم يجبنوا ولم ينكصوا .

(٤) التعاور : التداول ، وهو عام فى كل شىء ، يقال : تعاورت الرياح رسم الدار أى تداولته . والأصل ، بضمتين ، جمع أصيل ، وهو الوقت بين العصر والمغرب

(٥) القيم على الأمر : متولية . وقيم المرأة : زوجها .

(٦) أثير « الواغل : الذى يدخل على القوم وهم يشربون » .

لما رأيتُ بنى عوف واخوتهم  كعبا وجمع بنى النجار قد حفلوا
قِدْماً أباحوا حماكم بالسيوف ولم  يفعل بكم أحد مثل الذى فعلوا

وواضح أن رواحة يتتبع سواه ، وينطلق من نقطة الضعف المعتادة نفسها وبالمقارنة البسيطة بين البيت الأول لعبيد بن ناقد :

لما رأيتُ بنى عوف وجَمْعَهمُ  جاءوا وجمع بنى النجار قد حفلوا

وبيت ابن رواحة الأول :

لما رأيت بنى عوف واخوتهم  كعبا وجمع بنى النجار قد حفلوا

يتبين لنا إلى أى حد يكون الشاعر الثانى متتبعاً لخطى الشاعر الأول .

وبتأمل بيت ابن رواحة الثانى يتضح لنا فراره إلى الماضى .

النقائض ويوما حاطب وبعاث :

هناك نقيضتان بائيتان نظمها ابن الخطيم بعد يوم بُعاث، يفخر فيهما بانتصار الأوس فى يوم بعاث ويشير إلى يوم حاطب أيضاً . ومطلع الأولى :

أتعرف رسما كاطّراد المذاهب  لعمرة وحشاً غير موقف راكب

ومطلع الثانية .

رد الخليطُ الجمال فانقضبا (١)  وقَطّعوا من وِصالك السببا

وقد نقضهما ابن رواحة .

وأول ما يلاحظ على القصيدة الأولى ونقيضتها لابن رواحة ومطلعها :

---

(١) انقضب : انقطع .

أشاقتْك ليلى فى الخليط المجانب  نعم فرشاش الدمع فى الصدر غالبى

هو أن عدد أبيات قصيدة ابن الخطيم ثمانية وثلاثون بيتاً ، بينما عدد الأبيات التى وصلتنا من قصيدة ابن رواحة خمسة عشر بيتاً ، ويمكن أن يكون هذا البيت الذى جاء منفرداً :

رميناك أيام الفجار فلم تزل  حميًّا فمن يشرب فلست بشارب

من هذه المقطوعة ، وفيه يخاطب بن رواحة ابن الخطيم كما جاء فى ابن الأثير ، فيكون بين أيدينا ستة عشر بيتاً ، بمعنى أن العدد يقل عن نصف قصيدة بن الخطيم ، وهذا مما يؤكد ما سبق أن أشرنا إليه من أن كثيراً من شعر ابن رواحة الجاهلى لم يصلنا .

ويلاحظ على أبيات ابن رواحة أنها تبدأ بالمقدمة الغزلية التى جاءت فى أربعة أبيات .

والمتأمل لهذه المقدمة يتبين أن الشاعر فى موقفه من المرأة التى يهوى يتأثر بموقف الضعف والهزيمة التى كانت من نصيب قومه الخزرج فى معركة بعاث وقد كانت آخر الحروب بين الأوس والخزرج فى الجاهلية ومن أهمها إن لم تكن أهمها فعلا . ومع أنه يعين اسم محبوبته ليلى التى يقال إنها أخت قيس ابن الخطيم ، إلا أن الشاعر قد خلع عليها صفة الهجر له والبعد عنه ، مع قومها الذين ارتحلوا ، ولذلك أخذ يبكى ، على حد زعمه ، حتى مضى أول النهار ، وحتى بل صدره ، بسبب الحزن الذى تمكن منه ، والإعياء الذى حل به . وحينما حان وقت الرواح آبت إليه همومه التى كانت متفرقة فى كل صوب على حد قول شاعر [1] .

---

(١) ديوان المجنون ص ١٨٥ .

أقضّى نهارى بالحديث وبالمنى ويجمعنى والهم بالليل جامع

ومع أن هذه الحبيبة لم تبادله ود بود ، ولا أمل عنده فى أن تبادله ذلك مستقبلا ، إلا أنه يجد نفسه ضعيفاً أمامها دائماً وينطبق عليه الفكرة الشائعة من أن كل ممنوع مرغوب . وسبب هذا الضعف الهزيمة المنكرة التى حاقت بقومه فى بعاث والتى أثرت بالتالى فى نفسيته . يقول فى المقدمة :

أشاقتك ليلى فى الخليط المجانب نعم فرشاش الدمع فى الصدر غالبى

بكى إثر من شطت نواه ولم يقف لحاجة محزون شكا الحب ناصب

لدن غدوة حتى إذا الشمس عارضت وراح له من همه كل عازب

تبين فإن الحب يعلق مدبرا قديماً إذا ماخلة لم تصاقب

وكى يتضح تأثر النسيب بالنصر أو الهزيمة ، علينا أن نتأمل المقدمة الغزلية لقيس بن الخطيم :

أتعرف رسماً كاطراد[1] المذاهب لعمرة وحشاً غير موقف راكب

ديار التى كادت ونحن على منى تحل بنا[2] لولا نجاء الركائب

---

(١) أطراد : افتعال : من قولك اطرد ، إذا تتابع . يقال : اطرد القول والماء ، إذا تتابع . والمذاهب : جلود كانت تذهب ، واحدها مذهب ، بالضم ، تجعل فيها خطوط مذهبة بعضها فى أثر بعض فكأنها متتابعة . فيقول : يلوح رسمها كما يلوح هذا المذهب .

(٢) تحل بنا : تجعلنا نحل وننزل ، عاقبت الباء الهمزة . حل به المكان وأحله المكان ، بنصب المكان فيهما ، أنزله . والنجاء : سرعة السير . يقول : كادت عمرة أن تحملنى على الإقامة أبدا فى منى ، من شدة فتنتى بها وحبى لها ، ولولا نفرة الناس عن منى بعد قضاء حجهم وتفرقهم إلى بلادهم لكنت خليقا أن أقيم . هـ . الطبقات ص ١٩٠ الأستاذ محمود شاكر .

تبدت لنا كالشمس تحت غمامة  بدا حاجب[1] منها وضنت بحاجب
ولم أرهـا إلا ثلاثاً على منى  وعهدى بها عذراء[2] ذات ذوائب
ومثلك قد أصبيت ليست بكنة  ولا جارة ولا حليلة صاحب[3]

وواضح أن هذه المقدمة فيها حركة وحيوية وإيجابية وخاصة قوله « ومثلك قد أصيبت » فيبدو هنا اعتداد الشاعر بنفسه وإحساسه بثقل وزنه . ولا نشك أن هذه القوة فى هذه المقدمة مصدرها القوة عسكرياً .

ويتصل بموقف ابن رواحة الضعيف من الوجهة النفسية ، أنه حينما تتراكم عليه الهموم يفر إلى ناقته التى يمتطيها ، ويحثها على قطع المسافات الطويلة وسبق سواها المتعلقات أعينها بالسياط خوفاً من أن تنهال عليها للأعياء الذى تمكن منها ، الغائرات أحداقها بسبب قطع المسافات الطوال . وليس ببعيد عن أذهاننا قول طرفة :

وإنى لأمضى الهمّ عند احتضاره  بعوجاء مِرْقال تروحُ وتغتدى

يقول ابن رواحة :

كسوتُ قتودى عرمساً فنصأتها  تخبّ على مستهلكات لواجب
تُبارى مطايا تتقى بعيونها  مخافة وقع السّوط خوص الحواجب

وبابتداء البيت السابع يبدأ الموضوع الأساسى فى المقطوعة . وإذا تأملنا

---

(١) حاجب : جانب .
(٢) عذراء : حديثة ، وإنما أراد : عهدى بها ولم تبلغ أن ينالها الرجال .
(٣) الكنة ، بالفتح : امرأة الإبن ، أو الأخ ، والجمع كنائن .

ما قاله ابن رواحة فإننا نجده فى الحقيقة يفر من الحديث فى الواقع إلى أشياء أخرى بعيدة عنه بعداً بيناً .

فمعدنهم نقى ، وليسوا كغيرهم الذين يشحون بعد الجود لما صاروا إليه من الشدة والجهد ، ومضارب سيوفهم غير مذمومة ولا راجعة عليهم إلا بالثناء والوصف الحسن ، وهم يدفعون عن مجدهم التليد بإعطاء أحسن ما يملكون مما ورثوا للفقراء والمحتاجين . وحلومهم راجحة ، وشوكتهم قوية ، وشجاعتهم نادرة ، واستعدادهم لخوض المعارك دائم . سلاحهم السيوف الماضية والصبر الذى يتحلون به دائماً ، يقول :

إذا عُيِّرت أحسابُ قوم وَجدْتنا ذوى نائل فيها كرام المضارب
نحامى على أحسابنا بتلادنا لمفتقر أو سائل الحق راغب
وأعمى هدَته للسبيل حلومُنا وخصم أقمنا بعد مالجَّ شاغب
ومعترك ضنك ترى الموت وَسْطه مشينا له مشى الجمال المصاعب
بخرس ترى الماذىّ فوق جلودهم وبيضاً نقاء مثل لون الكواكب
فهم جُسُرٌ تحت الدروع كأنهم أسود متى تُنض السيوف تضارب
معاقلهم فى كل يوم كريهة مع الصبر منسوب السيوف القواضب

ويأتى بعد ذلك البيتان اللذان يجيب فيهما ابن الخطيم :

فخرتم بجمع زاركم فى دياركم تغلغل حتى دوفعوا بالرواجب
أباح حصونا ثم صمَّد يبتغى مظنة حىّ فى قريظة هارب

وكأنى بابن رواحة يفر إلى يوم سابق انتصر فيه الخزرج على الأوس

انتصاراً ساحقاً حتى إن الأوس دفعوا ببطون مفاصل أصول الأصابع الخزرج عنهم بعد أن تعطلت الأسلحة . وفى ذلك اليوم أباح حصون الأوس ثم توجه بعدها حيث الأمكنة التى يظن أن قريظة الهاربة قد اختبأت فيها . وحتى البيت الذى نرجح أنه أساسا من هذه القصيدة ، والذى يخاطب فيه ابن الخطيم .

رميناك أيام الفجار فلم تزل ... حيا فمن يشرب فلست بشارب

فإن ابن رواحة يفر فيه إلى الماضى ، فقد كان ابن الخطيم ، يوم الفجار الأول للأنصار ، فى حائط له ، فانصرف فوافق قومه قد برزوا للقتال فعجز عن أخذ سلاحه إلا السيف ثم خرج معهم ، فعظم مقامه يومئذ ، وأبلى بلاء حسناً وجرح جراحة شديدة ، فمكث حيناً يتداوى منها ، وأمر أن يحتمى عن الماء[1] فابن رواحة يعيره بما ألحق الخزرج به ذلك اليوم .

وليتضح لنا الفرق بين النفسيتين ، لنتامل شيئاً مما قاله ابن الخطيم فى قصيدته عن حرب حاطب والحديقة وبعاث ، يقول :

دعوت بنى عوف[2] لحقن دمائهم ... فلما أبوا سامحت فى حرب حاطب

أتت عصب الكاهنين[3] ومالك ... وثعلبة الأثرين رهط ابن غالب

---

(١) أثير ١ / ٦٧٦ .

(٢) يريد : عمرو بن عوف بن الخزرج . وسامحت : تابعت . وحاطب : حليف لهم قتل ، فكان بينهم حرب فى قتله .

(٣) الكاهنان : قريظة والنضير . وثعلبة : هم بنو ثعلبة بن عمرو بن عوف بن مالك ابن الأوس . والأثر ، بسكون العين وضمها وكسرها : الرجل الذى يستأثر على أصحابه أى يختار لنفسه أفعالا وأخلاقا حسنة .

رجال متى يُدْعَوا إلى الموت يرقلوا[١] إليه كإرقال الجمال المصاعب
إذا فزعوا مدوا إلى الليل صارخاً[٢] كموج الأتى المزبد المتراكب
ترى قِصَدَ[٣] المران تهوى كأنها تذرُّعُ خِرْصان بأيدى الشواطب
صبحنا بها الآطام حول مزاحم[٤] قوانس أولى بيضنا كالكواكب
لو أنك تلقى حنظلا فوق بيضنا تدحرج عن ذى سامه[٥] المتقارب
إذا مافررنا كان أسوا فرارنا صدود الخدود وازورار المناكب
صدود الخدود والقنا متشاجر ولاتبرح الأقدام عند التضارب
إذا قصرت أسيافنا كان وصلها خطانا إلى أعدائنا فنضارب
أجالدهم يوم الحديقة[٦] حاسراً كأن يدى بالسيف مخراق لاعب

(١) إرقال البعير : نوع من السير . والمصعب : الذى لم يمسه حبل ولم يذلل .
(٢) الصارخ : المغيث . والأتى : السيل يأتيك ولم يصبك مطره .
(٣) قصد : كسر . والمران : الرماح . والتذرع : قدر ذراع ينكسر ، وكل قضيب أو غصن يابس أو رطب من رمح أو سعف فهو خرص ( مثلثة ) . والشَّطْبَة : السعفة الطويلة . والشاطبة من النساء : التى تشققها وتأخذ قشرها الأعلى تعمل منه الحصر .
(٤) مزاحم : أطم عبد الله بن أُبَىّ بن سلول . والقوانس ، جمع قونس : الناتىء فى أعلى البيضة وإنما قال أولى ، لأنهم إنما يرون أول من يطلع عليهم .
(٥) اللسان « سوم » « أى على ذى سامه وعن فيه بمعنى على ، والهاء فى سامه ترجع إلى البيض المموه به ، أى البيض الذى له سام . قال ثعلب : معناه أنهم تراصوا فى الحرب حتى لو وقع حنظل على رؤوسهم على أملاسه واستواء أجزائه لم يتزل إلى الأرض .
(٦) الحديقة : قرية من أعراض المدينة فى طريق مكة ، كانت بها وقعة بين الأوس والخزرج قبل الإسلام . ياقوت . والمخراق : ما تلعب به الصبيان من الخرق المفتولة ، وهو ما يسمى حاليا بالطرة .

ويوم بعاث اسلمتنا سيوفنا إلى نَسَبٍ فى جِذْم[١] غسان ثاقب

يعرّين بيْضا حين نلقى عدونا ويغمدن حمرا ناحلات المضارب[٢]

أطاعت بنو عوف[٣] أميراً نهاهم عن السلم حتى كان أوّل واجب

أويت[٤] لعوف إذ تقول نساؤهم ويرمين دفعا ، ليتنا لم نحارب

صبحناهم شهباء[٥] يبرق بيْضها تبين خلاخيل النساء الهوارب

أصابت سراة الأغر[٦] سيوفنا وغودر أولاد الإماء الحواطب

ومنا الذى آلى ثلاثين ليلة عن الخمر حتى زاركم بالكتائب[٧]

فلولا ذرى الآطام قد تعلمونه وترك الفضاء شوركتم فى الكواعب

---

(١) الجذم ، بالكسر : الأصل . وثاقب : مضىء غير حامل . يقال : ثقبت النار وأثقبتها أنا ، ورجل ثاقب النسب والعلم ، أصله : مضىء متوهج .

(٢) مضرب السيف ومضربته : نحو شبر من طرفه .

(٣) بنو عوف : من الخزرج . وواجب : ميت . ورئيس بنى عوف الذى يقصده هو عمرو بن النعمان البياضى .

(٤) أويت : رققت ورثيت : ويرمين دفعا : أى يرمينا من فوق الآطام دفعا عن أنفسهن :

(٥) كتيبة شهباء وبيضاء : إذا كانت صافية الحديد : وتبين : أى يهربن فيحسرن عن أسوقهن .

(٦) الأغر : هو مالك الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج : يريد أنهم قتلوا سراة القوم من الخزرج ، لأنهم أقرانهم ، وعفوا عن سواهم :

(٧) هذا أبو قيس بن الأسلت .

رضيت لهم إذ لا يريمون[1] قعرها ... إلى عازب الأموال إلا بصاحب
فلم تمنعوا منا مكاناً نريده ... لكم محرزاً إلا ظهور المشارب[2]
فهلاّ لدى الحرب العوان[3] صبرتمُ ... لوقعتنا ، والبأس صعب المراكب
ظأرناكم[4] بالبيض حتى لأنتم ... أذل من السقبان بين الحلائب
ولما هبطنا الحرث[5] قال أميرنا ... حرام علينا الخمر ما لم نضارب
فسامحه[6] منا رجال أعزة ... فما برحوا حتى أحلت لشارب
فليت سويداً[7] راء من جر منكم ... ومن فر إذ يحدونهم كالجلائب

---

(١) يريمون : يبرحون ويغادرون : وعازب الأموال : هى الإبل والشاء التى تعزب عن أهلها فى المرعى : وهذا البيت فى الأصل قبل الذى يسبقه وقد جعلناه فى هذا الوضع اقتناعا بقول د : ناصر الأسد الذى قال عنه فى وضعه الأصلى « ولم أتبين للبيت بهذا الترتيب ، معنى يستقيم به : والأرجح عندى أن موضع البيت يجب أن يكون بعد بيت آخر ، كالبيت التالى له ، فيه لفظ الآطام أو مايشبهها ، ليرتبط بها الضمير فى « قعرها » .

(٢) المشارب : الغرف .

(٣) العوان : الحرب التى قوتل فيها مرة بعد أخرى .

(٤) ظأرناكم : عطفنا كم على ما نريد : ويقال فى مثل « الطعن يظأر » أى يعطف القوم على الصلح : السقبان، جمع سقب ، وهو الذكر من أولاد الإبل : والشطر الثانى مثل فى الميدان رقم ١٥٠٤ .

(٥) الحرث : موضع من نواحى المدينة .

(٦) سامحه : تابعة .

(٧) هو ابن الصامت الأوسى ، كان قتله المجذّر بن زياد حليف الخزرج ، فقتله بعد أن أسلم الحارث بن سويد ، فقتل النبى صلى الله عليه وسلم الحارث صبراً : وراء : أراد رأى فقلب : وهناك رواية أخرى : ومن خر منهم : والجلائب : الجماعات من الخيل والإبل والغنم والناس ، والواحد جلوبة ، وهى ما جلب من شىء .

فأبنا إلى أبنائنا ونسائنا وما من تركنا فى بعاث بآئب
وغيّبت عن يوم كنتنى عشيرتى ويوم بعاث كان يوم التغالب (١)

ونحن فى غنى عن أن نقول : إن ابن الخطيم ، فى هذه القصيدة ، يتقدم ابن رواحة ولكننا نضيف بأن ابن رواحة لا زال ينطلق من نقطة الضعف نفسها ، نقطة الهزيمة .

أما قصيدة ابن الخطيم الثانية فتقع فى خمسة وعشرين بيتاً ، ولم يصلنا من نقض ابن رواحة لها سوى ستة أبيات يهاجم فيها ابن الخطيم مباشرة .

وقد عودنا ابن رواحة أن يبدأ نقيضته بالمقدمة الغزلية ، ثم ينتقل إلى موضوعه الأساسى ولم يصلنا شعر الغزل ، فمعنى هذا أن مقدمة هذه القصيدة قد ضاعت . ثم إنه قد عودنا فى الدالية أن تكون قصيدته أطول من قصيدة خصمه ، فمعنى هذا أن أكثر أبيات هذه القصيدة قد ضاع . وأبيات ابن رواحة هى :

يا قيس أنتم شرار قومكم قدماً وأنتم أغثهم نسبا
حالفتم الفحش والخيانة والـ ـبخل جميعاً واللؤم والكذبا
يا قيس إن الأسلاب أحرزها من كان يغشى الذوائب القضبا
وأنت فى الدار غير محتضر حربا وتدعو قتالنا لعبا
لو كنت فيهم والحرب لاقحة لكفت فيهم مغلبا ذنبا
نحن استبحنا ما فى دياركم يوم صبحناكم بها عصبا

فنحن بصدد سباب وهجو ونفر مقيت .

(١) جاء فى الديوان بعد القصيدة « لم يكن قيس حضر يوم بعاث » :